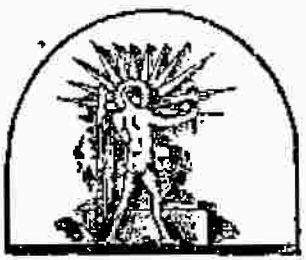

الاتحاد القومي

داؤه ودواؤه [1]

للدكتور سركيس
عضو المجمع العلمي العربي

أصبحت بلاد سورية ولبنان في طور عهدٍ جديد هو عهد الاستقلال والتمتع بالكرامة القومية في أوسع مداها. وما عهد الدول لنا بهذا الشأن كافياً وافياً، وإن كان عظيم الفائدة. بل يجب علينا أن نضيف الى هذا السند الرسمي مساعي فعالة طيبة من قبلنا، تظهر اننا نفكر في واجباتنا ومسؤولياتنا تجاه هذا الاستقلال، قبل أن نفكر في مغانمنا وأمانينا الذهبية من ورائه، بحيث نكون مستحقين له ولحسن عناية الدول ورعايتها حين تضع تفاصيل الميثاق الاطلنطي، وفي مقدمة أغراضه تأييد الشعوب الصغيرة ومنح كل منها حقوقها السياسية.

فما الشرط الأساسي الذي يطلب منا لنيل ذلك. هو ولا شك اتحادنا كتلة قوية صادقة في نياتها ومساعيها ومقاصدها. وما الذي يحول دون اعتمادنا على هذه الصفة الشريفة. هو ولا شك وجود النعرات الدينية في صميم مجتمعنا، وترصد النصارى والمسلمين بعضهم لبعض، بتأييد هذه النعرات الخبيثة.

ومن ثمّ يكون زوال النعرات الدينية من بيننا أعظم ضامن لنجاحنا سياسيًّا وإداريًّا واجتماعيًّا، وأصدق كفيل لسلامة استقلالنا وراحة بالنا وكرامة نفوسنا وصون نفائسنا.

وإذا لم تزل من بيننا هذه النعرات الخبيثة فلا تكون الوحدة العربية اذا حزناها، ونحن اليوم نعوّل عليها ونسعى اليها ونفتخر بها، إلاّ صئيلة الجدوى إذ لم أقل معدومة الجدوى، وما أشبهها بصَرح جميل فخم ولكنه ذو أساس ضعيف تغير عليه من هذه الزاوية ومن تلك، مسارب مياه قوية التيار، تحتفر الأخاديد في طريقها وتهدد الصَرح بالتصدع فالانهيار بين ساعة وساعة، والعياذ بالله.

(١) محاضرة ألقيت في ردهة المدرسة التجهيزية الرسمية بالاشرفية في ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٤

ولا تنسوا أن أول واجب يطالب به الكاتب أو الخطيب أن يكون مدفوعاً بعامل الاخلاص والحمية قصد الافادة والارشاد، لا قصد الاغراب والمباهاة، بحيث يرضي ضميره أول شيء. ورحم الله من قال: أخوك من صدّقك، لا من صدّقك.

النعرات الدينية تحقرنا أمام الناس وأمام أنفسنا كلما فكرنا في قبح مدلولها. النعرات الدينية تجعلنا مطمعاً لكل طامع وحجة دامغة علينا لكل محتج وتكذبنا جهاراً في كل صيحة من صيحاتنا الوطنية وكل دعوى من دعواتنا القومية. وهذه النعرات لم يقتصر أمرها على الشعب في خصوصياته وفي دخائل كل فرد من أفراده، بل تعدت ذلك الى ما يخزي ويخذل. فأصبح لها أثر رسمي قانوني في انتخاباتنا ووظائفنا ودعواتنا وافتراحاتنا ومشروعاتنا. ونخشى أن يستشري فسادها بعد قليل فتدخل في مطاعمنا ومشاربنا وفي أبسط وأحقر مظهر من مظاهر معيشتنا. ولم يكن أمرنا ليصل إلى هذا. نعم أنّ أبناء جيلنا الحاضر عرفوا من حقائق الكون العمرانية ما لم يعرفه آباؤهم وأجدادهم، وأصبح فيهم استعداد فطري للاخاء الوطني والرابطة القومية وتقديمها على كل رابطة سواها. ولكن تيّار الأحوال الطارئة جرفهم على صعيد منهم أو على تجاهل وتغافل، فوقعوا في سوء ما ورثوا بتطبيق نظاماتنا الرسمية على فوارق الدين بيننا. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وقد تناولت هذا المطلب الوطني الجوهري مراراً قبل اليوم في جرائد ومجلات مختلفة منها ما فتئه منذ سبع سنوات بعنوان: « لا يجتمع سيفان في غمد. إمّا الطائفية وإمّا الوطنية ». ثم أقول: « أما نحن سكان هذه الديار فأمرنا عجب. ظاهره يضحك الثاكلات وباطنه يشكل الضاحكات. أمرنا عجب. وكل عدّتنا فيه صخب ولجب. نحب الوطنية. ونشتهي الوطنية ونحسّ بحاجتنا القصوى إلى الوطنية. ونتغنى بالوطنية وتنادي ألسنتنا وأقلامنا بالوطنية في كل صباح وكل مساء. ومع ذلك لا نتحوّل قيد شعرة عن النعرة الطائفية. ولا نتنازل عن حبّة عما اصطلحنا أن نسميه حقوقاً طائفية أو تقاليد طائفية، ولا نعرف أن نعيش إلاّ بالطائفية. منشقين ريحها. سكارى براحها. ملهمين روحها. وكثيراً ما نضحّي الوطنية لأجل الطائفية بحيث لا نعطي الوطنية إلا القشر ونذّخر اللب كله للطائفية. بحيث يقول اللسان وطنية ويضمر القلب طائفية. ومن ثمّ نزداد بعداً عن تحقيق الآمال بجمع الكلمة ورصّ الصفوف ينصر بعضها بعضاً وهي حالة تماسة وألم كأنها المعنية بقول القائل.

وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادرٌ عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

* * *

كانت المملكة الاسلامية في عصورها الأولى خلافة دينية بحتة . وكان معظم النصارى المنضوين تحت لوائها أجانب عنها غرباء بلسانهم وأخلاقهم وميولهم وسياساتهم المتحدرة اليهم مما ألفوه وعهدوه وأشربته قلوبهم من دول نصرانية سابقة ما بين يونان ورومان وسريان وأقباط وغيرهم، وهي الدول التي غلبها المسلمون على أمرها وملكوا ديارها . ومن ثم كان المسلمون معذورين عذراً واضحاً في كيفية نظرهم إلى النصارى الساكنين معهم وفي اتخاذهم الحيطة بشأنهم ، وبما أن هؤلاء النصارى دخلوا في الدولة الاسلامية وهم أهل كتاب سماوي ، رعى المسلمون حرمتهم إلى حدٍّ محدود فسموهم ذميين أو معاهدين وأخذوا على أنفسهم حمايتهم والذود عن حقوقهم بشروط وقيود مفصلة في مواضعها ، خوفاً من فتنة أو ثورة أو مكيدة تقع عليهم من قبل هؤلاء النصارى .

أما اليوم فقد زالت هذه الأحوال وهذه الدعاوي، ولم يبق مسوغ لهذه التفرقة بجعل الرعايا قسمين مؤمنين أقارب ، وذميين أجانب . لم يبق مسوّغ لهذا لأن اللغة والمشارب والأخلاق أصبحت كلها موحدة ضمن إطار عربي . ان قرناً واحداً في المعاشرة والامتزاج يحسب كافياً لمثل هذا التوحيد ، فكيف وقد انقضى على تلك الحال ثلاثة عشر قرناً ونيفاً ونسي النصارى ما كان يربط أجداد أجداد فئات منهم باليونان والرومان وغيرهم رباط جنسية ونسب . لقد استعربوا جميعهم من قمة رأسهم إلى اخمص قدمهم ، ولم يضرهم شيئاً في استعرابهم ، أصلهم الأعجمي القديم . ثم إذا كانت العجمة قد دخلت في أنساب بعضهم متوغلة في قدمها ، فان بعضهم الآخر يمت إلى نسب عربي صميم من أيام الجاهلية ، وأريد أنهم من سلالة القبائل العربية المتنصرة ، وأشهرها في القسم العدناني تغلب وبكر وكلب والأزد . وفي القسم القحطاني طي وكندة وغسان ولخم وقضاعة وإياد . أو ليس كذلك شأن اخواننا مسلمي العرب ؟ فهم في أنسابهم من قبائل عربية ومن شعوب أعجمية كالفرس والترك والاكراد والشركس وغيرهم . بل إن أجداد جماعات منهم ، هم أجداد النصارى أنفسهم . وإنما دخلوا في الاسلام تدريجاً بعوامل مختلفة أهمها عاملان جوهريان لا ثالث لهما : وهما الرغبة والرهبة . على أن اختلاط العناصر والانساب شيء لا بد منه بفعل كرور الأحقاب والاشتراك في الوطن والمعيشة حتى أصبح من النادر أن نجد أمة ترجع أصولها الى جنس واحد . وقد يتسع هذا التحيص للقبائل الرحل كالبدو من العرب ومن التتار والخزر وهنود أميركا وزنوج أفريقية وقبائل الاسكيمو محوار القطب الشمالي . وأما الأمم المتحضرة وهي

تسعة أعشار البشر أو تزيد ، فلا يتسنى لها هذا التمحيص . فالأمة الفرنسوية مثلاً يدخل في نسبها القديم العرق الجرماني . ويدخل في الأمة الروسية العنصر المغولي . وفي الأمتين الاسبانية والبورتغالية الدم العربي . وفي الأمة الايطالية الأصل اليوناني إلى آخر ما هنالك.

واذا حاول جماعة من أهل التعنت والعناد أو من المولعين بالمكابرة والمجادلة أن يتمادوا عن صحة هذه النظرية العمرانية الجلية ، وأصروا على حرمان نصارى العرب حق انتسابهم إلى العروبة أجبناهم : رويدكم : إذا كنتم ترون النسب اليوناني أو السرياني أو الفينيقي أو غيرها من أنساب الأعاجم أولى بأبناء وطنكم النصارى من النسب العربي ، لأن أجدادهم من الف سنة كانوا ينتمون إلى هذه العناصر ، فانكم بهذا المقياس الجائر تخرجون بني قريش أنفسهم، وهم سادات العرب ، عن عروبتهم وتحكمون بانهم كلدان لانهم ينتمون إلى اسماعيل ابن ابراهيم الخليل بن ناحور بن تارح وهو كلداني قح من بلاد ما بين النهرين ، من مدينة الرها التي تسميها اليوم أورفا . فما قولكم في هذه المهزلة بجعل قريش كلدانا ، بل بجعل جميع القبائل العدنانية لا قريش وحدها ، خارجة عن العروبة ، مع أنها تؤلف في التاريخ نصف الأمة العربية .

وفي هذا القدر كفاية لاثبات عروبة الوطنيين من نصارى بلادنا في عصرنا الحاضر أسوة بأبناء وطنهم المسلمين . فلا يجوز أن ينظر اليهم كما كان ينظر إلى أسلافهم من نصارى الشرق الأوائل في فجر الاسلام . كان نصارى تلك العصور أعاجم بلسانهم وعاداتهم واخلاقهم وتقاليدهم ومقاصدهم ، وأما نصارى اليوم فهم عرب في جميع ما ذكر . كان النصارى القدماء يؤدون الجزية لبيت المال ، والجزية هي أكبر دليل وبرهان على أن لهم حالة استثنائية في نظر الدولة ، لا تعادل حال المسلمين . وأما نصارى اليوم فقد أعفتهم الدولة من أداء الجزية ، وان شئت فقل أعفتهم من تلك الصيغة . . . كان أولئك النصارى لا يطالبون بالخدمة العسكرية إذ لا يؤمن جانبهم ولا يقبل اشتراكهم فيها إذا أرادوا التطوع لها . وأما نصارى اليوم فهم شركاء أبناء وطنهم المسلمين في هذه الخدمة على اختلاف أنواعها من جيش عامل وجيش احتياطي ودرك وشرطة وحرس . ويضاف إلى هذه المزايا أن نصارى نهضتنا الحاضرة قاموا بقسط كبير شريف في خدمة العرب والعربية داخل ديارهم ، وحملوا قبسها الوهاج ، ونشروا لواءها الظليل خارج ديارهم في عدة أقطار شرقية وغربية ، تشهد لهم بذلك شهادة لا ترد ولا تدحض ، جمعياتهم وأنديتهم وصحفهم ومؤلفاتهم وخطبهم .

(البقية في العدد المقبل)